

الإنتاج الزراعي في المغرب القديم

تبرز مقولة كاتون (Caton عاش في القرن الثاني ق.م) وهو يشير إلى حبات تين جليها من قرطاجة وهو يخاطب مجلس الشيوخ قائلا: "هذه الخيرات على مسافة قريبة منكم"، وكأنه كان يدعو بضرورة تدمير قرطاجة التي تمثل خطرا على روما، واحتلال قرطاجة وما حولها لما تتوفر عليه من خيرات، خاصة أنه كان على علاقة متينة مع رجال المال الرومان الذين يبحثون عن مجالات جديدة لاستثمار أموالهم، كما نشير كذلك إلى ما قاله قيصر بعد احتلاله نوميديا عام 46 ق.م: "أتيت إلى روما ببلد يستطيع أن يزودها بمقدار 840 ألف قنطار من القمح سنويا".

وبهذا كانت ازدهار الزراعة وخيرات المغرب القديم منذ عهد الملوك النوميديين الذين كانوا يوفران الحاجات الرومانية من الحبوب هو الدافع الرئيسي لاحتلال هذا المجال الحيوي من طرف الرومان. وركزوا على زراعة القمح، حيث ارتفعت مساهمة المغرب القديم في تموين روما بالمواد الغذائية تدريجيا حيث أصبحت في القرن الأول الميلادي تمثل ثلث 3/2 حاجياتها أي ما يعادل 2 مليون قنطار سنويا تقريبا.

أ/ الحبوب:

1- مراكز انتشار زراعتها: كانت أهم المحاصيل الزراعية في المنطقة فكانت تنتشر في كل السهول العليا تقريبا وتمتد شمالا إلى السهول الساحلية، وأهم دليل على ذلك انتشار مخازن الحبوب (هوريا Horreoi وبقايا المطاحن).

وفي تونس نجده في السهول الساحلية الشمالية والشرقية ووادي مجردة، وفي الجزائر بالسهول العليا مثل سطيف، قالمة، سوق أهراس، تيارت، وفي المغرب بالسهول الساحلية الأطلسية. وفي الهضاب الداخلية مثل حوض مراكش، مع الإشارة إلى أن هذه الزراعة امتدت إلى شمال الصحراء الكبرى بفضل استصلاح الأراضي.

ويعود الفضل حسب المصادر القديمة لماسينيسا الذي لعب دورا هاما في تطوير الوسائل الزراعية واستصلاح الأراضي البور، ويقول بوليب على سبيل المثال: "إليك أروع ما عمله ماسينيسا، كانت نوميديا قبله لا تجدي نفعا ولا تأتي بفائدة وكانت تعتبر بطبيعتها غير قادرة على إعطاء شيء من المنتجات الزراعية، وكان ماسينيسا أول بل الرجل الوحيد الذي أظهر أن نوميديا قادرة على إعطاء جميع المحاصيل الزراعية مثلما تعطيه أية جهة أخرى في العالم وذلك لأنه

استصلح مساحات شاسعة وتعهدها بالزراعة والحراث". ويبدو أن أكثر ما اهتم به هذا العاهل النوميدي كانت زراعة الحبوب، لكن مقولة بوليب فيها مبالغة لكون زراعة القمح كانت مزدهرة قبله بكثير.

وقد ازدادت أهمية المغرب القديم في تموين روما ابتداء من القرن الرابع الميلادي بعد أن حول إنتاج مصر إلى القسطنطينية فأصبحت المنطقة تتحمل وحدها عبء توفير الغذاء لروما ومن هنا ظهرت عبارة "افريقية خزان روما".

2-القمح: عرف سكان المغرب القديم زراعة القمح منذ وقت مبكر، حيث أشار مؤرخون قدامى إلى ليبين يزرعون الحبوب غرب نهر تريتون.

لكن التساؤل هو هل كان القمح نباتا برياً وتم تدجينه، وأنه دخل المنطقة من مناطق أخرى، وقد بقيت زراعته محدودة إلى غاية الحرب البونيقية الأولى، فقد كانت قرطاجة تتمون من جزر صقلية وسردينيا لكنها بعدما فقدت هذه الأقاليم إثر هزيمتها في هذه الحرب أخذت تركز هذه الزراعة على أراضيها، لتتطور هذه الزراعة بالمنطقة.

وفي عهد الملك ماسينيسا، كان القمح يحتل المرتبة الأولى من حيث المنتجات الزراعية، وقام ملوك نوميديا بتصدير كميات كبيرة نحو الجيوش الرومانية في سردينيا وغاليا وجنوب اسبانيا وحتى اليونان. ووصل ما كانوا يصدروه إلى سبعين ألف قنطار عهد مكيبسا، ويتفنن المؤرخون القدامى في تقديم الأرقام الضخمة التي كانت تصدرها نوميديا نحو الأقاليم الرومانية.

ويبدو أن الملوك النوميدي قد تحصلوا على هذه الكميات من القمح المصدر عبر الأراضي التابعة للتاج، أو من خلال تحصيلهم للضرائب، ومن بين ما أخذ المؤرخون القدامى يذكرونه وبشيء من المبالغة بشأن خصوبة أراضي الموزاق (Byzantium) جنوب شرق تونس، ومنها أن الحبة كانت تعطي مائة حبة، وحسب بلين فكانت تعطي 150 حبة هذا ما يعطينا مردودية بمعدل من 30 إلى 45 قنطار في الهكتار الواحد.

إلى جانب النصوص الكلاسيكية دلت النقوش والمسكوكات على هذا الثراء الزراعي حيث رسمت سنابل من القمح على المسكوكات لبعض الملوك النوميدي مثل ماستانيسا (81-48 ق.م) وكذا على نقود فضية منسوبة للملك هي مبالصال 105-62 ق.م كما رسمت على نقود مدينة سيرتا وغيرها من المدن الساحلية.

أما مع بداية الاحتلال الروماني عام 46 ق.م فرض قيصر ضريبة على الولاية الجديدة تقدر بمليون ومائتي ألف صاع من القمح، وإن افترضنا أن هذا الرقم يمثل عشر المحصول (وهو مقدار الضريبة الرومانية على المقاطعات) فهذا يجعل إنتاج نوميديا كان يفوق مليون لتر من القمح.

وربما هذا ما جعل الرومان يولون شمال إفريقيا أهمية خاصة وقاموا باحتلاله تدريجياً، ووجهوا الأراضي الزراعية لخدمة حاجاتهم من القمح وتغطية العجز الذي عرفته بعد تراجع زراعتها وازدياد عدد العاطلين في روما.

- كما ذكروا حديثين هامين خارقين هما إرسال مسؤول الأملاك الإمبراطورية في مقاطعة الموزاق إلى الإمبراطور أوغسطس 400 سنبله نبتت من حبة واحدة، وكذلك الأمر عهد الإمبراطور نيرون حيث أرسلت له 360 سنبله نبتت من حبة واحدة.

وأحدثت روما نظام الانونة من أجل قمع بلاد المغرب القديم حيث كان يجلب كغرامة أو ضريبة وكانت تراقب السفن قبل إبحارها نحو روما، فاستطاعت بذلك السطة الرومانية من تموين روما بثالث القمح الضروري المخصص للتوزيع المجاني بينما بيع الباقي بسعر منخفض.

لكن بعد القرن الأول ميلادي بدأت زراعة القمح تتراجع لحساب زراعات أخرى مثل زراعة الزيتون والكروم، مما جعل العديد من الأباطرة للقيام بإصلاحات وتوجيه السياسة الزراعية، وأهمهم: هدريانوس ودوميتيانوس، وذلك عن طريق تحديد سعره، مراقبة عمليات التموين، وتدعيم هذه الزراعات والأسعار عند غلائها، وكذا اهتموا بتوفير الإمكانيات لازدهاره بتوسيع الطرقات والموانئ والمخازن والري لحماية هذا المنتج. كما قدموا تحفيزات لتشجيع زراعة القمح، خاصة قوانين هادريانوس الذي حث على خدمة الأراضي البور وزراعتها، وأعطى حق حيازة الأرض وتوريثها

لكن فوضى امتلاك الأراضي وضعف النظام الروماني للسيطرة سواء على الملكيات الكبرى الموجهة لزراعة الأشجار أو على السكان المحليين الذين أخذوا يثورون ويرفضون التعامل مع المستعمر أدى لفشل هذه الإصلاحات إلا أنه رغم ذلك فقد بقيت شمال إفريقيا المون الرئيسي لروما من القمح حتى سقوطها عام 476م.

3-الشعير: كان إنتاجه أقل من القمح بكثير، وكان يمارس عموماً بالمناطق الداخلية على يد السكان المحليين لعدم اهتمام الرومان بزراعته أو بانتزاعه من الأهالي، فكان البديل الأفضل للقمح للأهالي خاصة مع نقص كميات القمح الموجهة إليهم.

ب/ الزراعة الشجرية :

1-الزيتون: كما سبق ذكره عرف المغاربة القدماء زراعة الأشجار المثمرة وعلى رأسها الزيتون، ويذكر لنا هيرودوت أن جزيرة قرقنة التونسية كانت مغطاة بأشجار الزيتون والكروم كما أشارت رحلة سيلاكس أن سلطان جربة قد صنعوا الزيت من نبات الزيتون البري، كما انتشرت زراعة أشجار الزيتون في منطقة قوريني وساحل السرت الأصغر. أما عهد الممالك المحلية فقد شجع ماسينيسا غرس أشجار الزيتون، وهي زراعة ازدهرت وتطورت مع عهد خلفائه خاصة بالأراضي الشرقية، وعشية الاحتلال الروماني فرض قيصر عام 46ق.م على مقاطعة افريقيا الجديدة على دفع ضريبة سنوية تقدر بنحو ثلاثة ملايين رطل من الزيتون.

خلال القرن الثاني للميلاد عرفت شمال إفريقيا موجة كبيرة من الجفاف مما أدى لانصراف المزارعين عن زراعة القمح لزراعة الزيتون، وكانت زراعته عموما معروفة قبل الرومان، وكان نباتا برياً أصيلاً لشمال إفريقيا تم تدخينه لكن في مناطق جد محدودة لعدم اهتمام الأهالي بزراعة الأشجار بشكل عام. لكن بعد الاحتلال الروماني وبرز الزيت كواحد من أهم سلع الإمبراطورية لاستعمالاته الكثيرة إضافة إلى الريح السريع والوافر فيه، وجه الملاك أراضيهم لزراعته على حساب القمح، وازدهرت زراعة الزيتون بسرعة فائقة، وشجع الأباطرة على هذه الزراعة لما توفره من عوامل سياسية تمكنهم من التغلغل بالمناطق الداخلية، حتى وصلت حدودهم جنوباً أوجها خلال القرن الثالث ميلادي (على حدود الأطلس الصحراوي).

وانتشرت زراعة الزيتون من المناطق الساحلية إلى الداخلية، ورغم تدخل الأباطرة بقوانين تمنع زراعة الزيتون على حساب القمح إلا أن الرومان أنفسهم لم يطبقوا هذه السياسة للريح الذي كانوا يحققونه من زراعة الزيتون مقابل تكاليف لا تكاد تذكر وسرعة إنتاجها السنوي.

2-الكروم: وجد الكروم بشكل بري قبل قدوم الفينيقيين، ويرجع الفضل لهم في تطوير غرس هذا النوع من الأشجار، ويذكر ماغون القرطاجي في موسوعته الزراعية تقنيات كبيرة في زراعة الكروم. وعرف النوميدي هذه الزراعة واهتموا بها حيث ظهرت عناقيد العنب على عمالات الملك ماسينيسا وأيضاً نقود مدينة ليكسوس وسالا وقونوقو.

دخلت مع القرن الأول ميلادي وانتشرت لكن بشكل قوي كالزيتون، وفي وقت فشل الأباطرة في الحد من زراعة الزيتون إلا أنهم نجحوا في الحد من زراعة الكروم ومنعها، من أجل إنقاذ الزراعة الإيطالية من المنافسة وهي التي كانت تعتمد على الكروم وإنتاج النبيذ بشكل أساسي في

اقتصادها، ورغم ذلك فالعديد من النصوص تشير إلى تواجد حدائق الكروم حول المدن الكبرى خاصة سيرتا وقيصرية.

3-زراعات شجرية أخرى: إضافة للزيتون والكروم فقد عرف الليبيون أيضا التين قبل مجيء الفينيقيين واعتبرت الفاكهة المفضلة لهم ، ونشير إلى عرض كاتون منتصف القرن الثاني قبل الميلاد على مجلس الشيوخ الروماني حبات تين ذات حجم كبير ليبين لهم الازدهار الزراعي الذي وصلت إليه قرطاجة، وأخذ النوميدي عن القرطاجيين طريقة استثمار التين.

ويمكن ذكر أيضا فواكه الرمان الذي أدخله الفينيقيون وعرف بالتوفاح البونيقي، وأيضا زراعة أشجار اللوز، الجوز، البقول بكل أنواعه وغيرها .

أما النخيل فقد وجدت على ما يبدو قبل قدوم الفينيقيين، وعرفتها قبائل الناسمون والغرامانت، وتناولوا التمر كفاكهة تدل على الثراء.